على طريق العودة

قطع طرقات الشوق في حرارة الليالي الصيفية. سره الوصل بعد فراق دام قرون، فهو عاشق، والعشق حرام لقلب ينزف أيام الحنين على ماردين. تسكع في غابات الحزن ومدن الجور. لفته الوحدة بخمارها؛ في القلب خنجر مغروس منذ الأزل، زاده حزناً على حزن.

على طريق العودة، عد الأيام والسنين. شدته الجبال، كما أبهرته الأنوار المتلألئة على جبين ماردين الشامخة على كتف الجبل. هناك في البعيد. خلف أسوار الحديد الملغمة، وجنود المحشر... فهي الحسناء في يد الوحش.

كان الحلم يسبقه خلف الحدود، يتراقص في شموخ جودي وباكوك... شب والحلم رفيق طفولته، وأمل شبابه. خط أشعار الغزل والاشتياق، كما خط أطياف الحلم القابعة في عقله الباطني.

غنى للمجد والخلود، وللثائرين في طريق الحرية. وعندما قرعت الطبول معلنة بداية النهاية، سار في أثرها. رافق بيريفان، وأعجب بمظلوم... زرع ورود الأمل في بساتين التيه، وقطف عناقيد الشوق في تعبد وإجلال.

الروح متمرد عاص، مطبوع بحب الجبال، والجسد أسير قوانين الأسياد. كل خلية فيه تصرخ بلا لكل ما هو غريب عن طبعه وطابعه الحر المحمل برائحة جبال طوروس وزاغروس... المجبول من طينتها ومياه ينابيعها الصافية المنحدرة من قلبها العاصي.

متمرد صغير، كبر على حلمة في العودة إلى الأرض التي أقتلع منها. أخذ زاده وزوادته من العلم والمعرفة والفن والثقافة، والروح الجماعية النابعة من حبه وإخلاصه لمن جمعه بهم قصة الوطن المسلوب، وأخذتهم الغربة إلى متاهات الضياع.

مدَّ يده للعائدين من خلف الحدود، المحملين برائحة التراب المسلوب، والشعب الضائع. ما مضى الكثير حتى كان مضيافاً معهم ومن ثم رفيقاً نشطاً، يتكفل بمهام تطلب منه الشجاعة، والعزيمة القوية، والإرادة الصلبة.

رائد الحركة الآبوجية في منطقته، فتح قلبه وفكره لكل جديد يعيد مجد الوطن المسلوب على طريق آبو. مقاومة مظلوم، شجاعة كمال، حكمة خيري، وصدق مزكين... أشبعت فضوله وتوقه. قرر أن يسير في أثرهم، يزرع خطواته على طرقات الجبال في الحرب والمقاومة.

رافق بيريفان في مسيرتها الشعبية، وكله ثقة بأصالة المرأة الكردية، عصيانها، تمردها، وكونها الأمينة على الحياة الحزبية والثقافة التنظيمية.

كبر، وكبر حلمه في أن يكون رفيقاً ثائراً في سبيل كل الشعوب المسلوبة الوطن والإرادة. أيد محمود درويش في عواطفه الثائرة، بقافيته المسكوبة على الورق، المحملة بطعم الأناشيد الوطنية. لترتفع الطبول في الدق والمزامير في العزف حتى تشق عنان السماء، وآذان النفوس الميتة المبتلية بداء الكسل والاستسلام...

سكب عواطفه المحملة بآماله وآلامه في سطور شعرية، وفي أغاني طربت النفوس المتعطشة للحرية، وسقت الأرواح المتمردة بنور الهداية.

ما كان إلا السباق في كل الميادين، لم تخيفه تجربة ولا خوض غمار مغامرة، مؤمن بتفوق قواه، فلا بد أن يصل إلى النتيجة التي يتوخاها إن عاجلاً أو أجلاً، وحياته سلسلة مغامرات، ما بين الرفض والتجديد.

حدد مفاهيمه ووجهة نظره المستقلة بفكره الحر تجاه المصطلحات، وثرثرة المستسلمين للواقع، آمن أن مستقبل الإنسان مرتبط به، وهو مخير في الكفاح والمقاومة، أو العيش على هامش الحياة. حدد بوقفته اختياره الأصعب والأفضل.

إنه البادئ، والبداية شعاره، كما التجديد من صفات وحماس الشباب. تجمع حوله أبناء جيله، فتيات وشباب، كون بهم مدرسة، ينهلون منها حب الوطن وعشق الجبال.

كل الفنون جادها، بلهفة قلبه العاطفي، وحماس شبابه، وشدة عزيمته، حتى بات نبض الحياة لجيله. ساروا خلفه قوافل، حاولوا اللحاق به، لكنه بقي السباق.

شامخ مارد، جمع ما بين ذروتي الحياة، وكون قمة التناقض والبحث عن الذات. كل المحيط غريب، حتى الشارع الذي ولد فيه، وحتى البلدة التي حضنت ميلاده ونموه. وهو يكبر ويتمرد، يكبر ليتمرد، حتى صار التمرد عنوان ذاته الضائعة في لجة الإنكار.

ما عاقته قوانين، ولا دساتير. نظم مدرسة بلغته الأم. علم أترابه الكتابة والقراءة. كم كان يبدو غريباً بقامته القصيرة وحجه الصغير، وذكائه الخارق، ونكتته الأنتقادية اللاذعة.

بنى مكانته في قلب رفاقه ورفيقاته، وثقوا به، وبات طليعة طبيعية يلجئون إليه في ضياعهم، ومحنهم... عاش أكبر من عمره، سبق الأيام، تخيل، تصور، توقع المستقبل، وما خاب ظنه، صدق في كل تنبؤاته وخيالاته، فقد كبر وعاش، وصدق حدثه، عالمه الغني فكراً وعاطفة، طغت صفتها على حياته الزاخرة بالإبداع.

الطنبور، رفيقته الوفية، توحد معها، تناغما في وئام، لتكون صدى نبضات قلب عاشق، يصرخ بكل خلجات وجدانه الرافض للعبودية.

ترجمت نبضات روحه المتمردة والحالمة. توحد معهاً حتى الانصهار. بنغمات أوتارها، تراقصت أصابعه ما بين ال دو ري مي... أرسل نغمات قلبه مع نسمات الصباح الجنوبية، لتنثر الياسمين والرياحين في ربوع ماردين الشامخة، وقد لفها الشوق والحنين لأبنائها الذين ما كحلت عيناها برؤياهم بعد.

نظم للفن جيل جديد، وبدأ فرقته الفنية" زيلان" تطرب الشعب، تفتح أذانهم وأعينهم بعدما أخذتهم غفوة الموت في كابوس الاستعمار. تجمعوا حوله في نوروز مظلوم، زكية، ورهشان... غنوا للماضي العريق، والحاضر المظلم، والمستقبل الواعد. كانت دبكتهم حوله وهم يشدون على أيدي بعضهم البعض بداية وعدهم لبدء معركة الحياة الحرة.

بقيت عيناه معلقة على الجبال البعيدة، لم يطمئن لحياة السهول. روحه العاصية تشده ليكون نسراً محلقاً فوق القمم، حيث ترفرف رايات الكيريللا.

ترك الطنبور، وحمل سلاحه على درب الجبال، لامس ثرى حفتانين وجودي بوقار، وعندما وصل إلى القمة ضحك في استهزاء" ها قد وصلت إلى جودي، ولأصل إلى ماردين، وليحدث ما يحدث".

ماردين، ما زالت تنتظره، إنه يحمل لها تاريخ مجدها المسطر في خلجات فكره، عندما كانت تغني له والدته(قدرت) عن مسكن أجداده كفرزي، وأيام الهجر... فما زالت داليات العنب تقطفها أيادي ملطخة بدم أجداده، وهو المشرد على أبواب الحرمان. لم تعرف هويته خلف الحدود. ها هو عائد إليها. إنها تعرفه، لن تتنكر له، فهو على موعد مع رفاق دربه، صبري، نذير، ريحان...

لم يقطع المسافات مشياً، بل حلق في سماء الوطن، طار مع السحاب، ليكون الوصل واللقاء في جبهة الحرب" من لا يحارب في سبيل الوطن، لا يحق له أن يدعي بأنه وطني".

تسرع الخطى، قطع الآفاق، لف عباءة الليل خلفه، أشعل قناديل الشوق، رسم أفقاً لفكره المحلق أبد الدهر، ليزرع البسمة على شفتي أطفال وطنه المستعبد.

ها هي الشمس تميل إلى الغروب، والمعركة بدت حامية الوطيس. تسابق مع الزمان على أرضها. لا يعرف التمهل، يختصر المسافات والأحداث، سابق النار" كل جندي مقتول، يعني تسليح أحد أفراد الكيريللا الجدد". تحمس لتلسيح رفاقه الجدد. تعجل الأمر. وكانت حياته فداء الرفاقية والوطن.

خبات، كيف أعرفك؟ سنين وأنا أبحث عن كلمات، تعكس طيفك المتراكض على طرقات تربسبي، تبحث هنا وهناك عمن تحدثهم عن الثورة والثوار...

ما زالت تشهد لك شوارعها، نسائها ورجالها، شبابها وشيابها، أطفالها وكهولها... في حياتك، وفي نقرات الطبل والمزمار التي ختمت أيامك، بأناشيدها؛ كما كانت وصيتك.

روناك مراد